حين يتحول الحلم إلى مخاطرة... يصبح الطريق إلى المستقبل مجهولاً

الهجرة
حلم قاتل

رؤية واقعية لظاهرة الهجرة بين
الأسباب والمخاطر والبدائل

"الهجرة ليست حلماً مجانياً، بل طريق مليء بالتحديات قد ينتهي قبل أن يبدأ."

أحمد الراجي

الهجرة حلم قاتل

أحمد الراجي

الهجرة حلم قاتل

تأليف :أحمد الراجي

نسخة مصححة ومنسقة للنشر الإلكتروني

يبحث الكثير من الشباب اليوم عن الهجرة إلى الضفة الأخرى طلبًا للعيش الكريم وتحسين الحالة الاجتماعية، وأملًا في مستقبل أفضل .لكن الطريق ليس مفروشًا بالورود؛ فالهجرة غير النظامية تخضع لقوانين وإجراءات تختلف من بلد إلى آخر، وقد يعرّض من يسلك طرقًا غير قانونية نفسه لمخاطر قانونية وإنسانية جسيمة.

إن حلم كثير من الشباب اليوم، وتفكيرهم، منصبّان نحو أوروبا؛ تلك القارة التي يرون فيها فرصًا أفضل في التعليم والصحة والعمل والعيش الكريم .فيصبح أمل بعضهم العبور إلى الجهة الأخرى، متناسين أحيانًا الآلام والأوجاع التي خلفتها فيهم أوطانهم، أو باحثين عن بداية جديدة بعيدًا عنها.

والهجرة ليست ظاهرة جديدة؛ فالإنسان منذ القدم كان يبحث عن وسائل عيش أفضل وأرض صالحة للحياة .كما أن الهجرة لا تقتصر على سكان القارة الإفريقية، بل ينتقل الناس بين دول العالم المختلفة بحثًا عن العمل والاستقرار وتحسين ظروفهم المعيشية.

إنني لست هنا لأدافع عن الهجرة غير النظامية أو أشجع عليها، وإنما أضع هذه الإشكالية على طاولة النقاش، وأدعو إلى التفكير في السبل التي تحول دون تفاقمها مستقبلًا .فنحن لا نعلم إلى أي مدى يمكن أن تصل الأمور إذا لم تُعالَج أسبابها معالجة حقيقية.

هذه الفئة من الشباب تنتمي إلى المجتمع، ولذلك ينبغي النظر إليها باهتمام ورعاية، والبحث في الأسباب التي تدفعها إلى التفكير في الرحيل .فإذا كانت هناك مسببات اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية، فمن الضروري تحديدها بوضوح والعمل على معالجتها بدل الاكتفاء بإدانة النتائج.

لقد أصبح حب الوطن والانتماء إليه موضع تساؤل لدى بعض الشباب، فنجد من هم في عمر الزهور يشعرون بالنفور من أوطانهم، حتى قبل أن يخوضوا تجارب كثيرة في الحياة .وهنا يبرز السؤال :هل يرجع ذلك إلى الظروف المحيطة، أم إلى تأثير المقارنات المستمرة بين البلد الأم والبلدان الأخرى، أم إلى عوامل أخرى؟

لكل بلد ظروفه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتاريخية، ولذلك لا تكون المقارنة بين البلدان عادلة دائمًا .ومع ذلك، يبقى البحث عن لقمة العيش والكرامة الإنسانية حقًا مشروعًا لكل إنسان .وبلاد الغرب ليست جنة مفروشة بالورود؛ نعم، فيها امتيازات وفرص عديدة، لكن الحياة فيها تحمل بدورها صعوبات وتحديات ومسؤوليات.

ومن أراد الهجرة، فعليه أن يسلك الطرق القانونية والنظامية، وأن يتجنب الطرق العشوائية التي قد تعرّض حياته وحياة الآخرين للخطر .فالمهاجر الذي يوجد في وضعية غير قانونية قد يواجه مشكلات قانونية واجتماعية واقتصادية، كما تتحمل الدول المضيفة أعباءً إضافية مرتبطة بإدارة هذه الأوضاع.

ويظل الفقر من أبرز الأسباب التي تدفع كثيرًا من الشباب إلى التفكير في الهجرة .فهو آفة اجتماعية قد تجر وراءها مشكلات أخرى، ولهذا لا يكفي وصف الظاهرة، بل يجب البحث في أسباب الفقر والبطالة وضعف الفرص، والعمل على إيجاد حلول واقعية تساعد الشباب على بناء مستقبلهم في ظروف تحفظ كرامتهم.

والفقر ليس حكرًا على بلد أو قارة؛ فحتى الدول الغنية تعرف تفاوتًا اجتماعيًا، وتوجد فيها فئات تعاني الحاجة وصعوبة الحصول على السكن أو تغطية نفقات الحياة .وهذا يوضح أن الانتقال إلى بلد أكثر ثراءً لا يعني بالضرورة نهاية جميع المشكلات، وأن لكل مجتمع تحدياته الخاصة.

أعود إلى موضوع الهجرة لأؤكد أنني لا أدافع عن طرف بعينه، وإنما أطرح مجموعة من الأفكار والتساؤلات، وللقارئ أن يقبلها أو يرفضها .والمهم أن تسعى الدول التي تعاني من ارتفاع الهجرة غير النظامية إلى إيجاد حلول ناجعة، بدل الاكتفاء بإجراءات مؤقتة لا تعالج جذور المشكلة.

فإذا كانت البطالة مرتفعة، ينبغي العمل على توفير فرص لائقة للشباب وتهيئة الظروف المناسبة للعمل .وإذا كان ضعف الوعي عاملًا مؤثرًا، فمن المهم وضع برامج توعوية تشرح مخاطر الهجرة غير النظامية وتقدم للشباب معلومات واقعية عن البدائل القانونية والفرص المتاحة.

كما يمكن تعزيز الشراكات بين الدول في مجالات الاقتصاد والتعليم والتدريب والتنقل القانوني، بما يفتح آفاقًا أوسع أمام الشباب .فالمشكلة معقدة، ولا يمكن حلها بإجراء واحد، بل تحتاج إلى رؤية متوازنة تجمع بين التنمية والوعي والتعاون واحترام القوانين.

ويبقى السؤال مطروحًا :لماذا أصبحت الهجرة حلمًا حاضرًا بقوة لدى عدد كبير من الشباب؟ هل هو حب المغامرة، أم فقدان الأمل، أم الرغبة في حياة أفضل، أم الصورة المثالية التي تصنعها المقارنات ووسائل التواصل؟ لا أملك إجابة واحدة قاطعة، لكنني أرى أن فهم دوافع الشباب هو الخطوة الأولى نحو معالجة الظاهرة.

وفي زمن تتغير فيه مفاهيم الانتماء والهوية، أصبح بعض الناس ينظرون إلى الجنسية ومكان الإقامة من زاوية الفرص والمصالح الشخصية .كما تسعى بعض الدول إلى استقطاب الرياضيين والمثقفين والفنانين ورجال الأعمال والكفاءات، رغبةً في تعزيز مكانتها وقدرتها التنافسية .وهذا كله يجعل قضية الهجرة أكثر تشابكًا من مجرد انتقال فرد من بلد إلى آخر.

ولكي تُعالَج الهجرة غير النظامية معالجة جادة، لا بد أولًا من تشخيص أسبابها بدقة .فهناك من يرى أن الحل يكمن في توسيع فرص التنقل القانوني والتعاون الإقليمي، بينما يرى آخرون ضرورة تشديد القوانين والإجراءات .وفي كل الأحوال، فإن أي قرار كبير يحتاج إلى دراسة معمقة تراعي الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإنسانية.

كما أن حرية التنقل ترتبط في الواقع بقوانين الدول وحدودها وإجراءات التأشيرات والإقامة .ولذلك ينبغي للشخص الذي يفكر في الهجرة أن يطّلع على القواعد القانونية المعمول بها، وأن يختار المسارات النظامية التي تحفظ حقوقه وسلامته.

ومن الجانب الديني، توجد آراء واجتهادات متعددة حول الإقامة والهجرة بحسب الظروف والقدرة على حفظ الدين والنفس والأسرة .ومن ثم لا يصح اختزال المسألة في حكم واحد عام دون النظر إلى اختلاف الأحوال والبلدان والضرورات .أما من الجانب الإنساني، فكرامة الإنسان وسلامته تظلان فوق كل اعتبار.

الحياة فرصة واحدة، والإنسان مطالب بأن يحافظ على نفسه وألا يجعل البحث عن مستقبل أفضل سببًا في تعريض حياته للخطر .كما أن الطموح إلى تحسين الظروف المعيشية لا يتعارض مع التمسك بالقيم والروابط الإنسانية والاجتماعية التي تمنح الحياة معناها.

إن شباب اليوم ينظرون إلى العالم بطريقة مختلفة عن الأجيال السابقة، وقد أسهمت التكنولوجيا والانفتاح الإعلامي في توسيع آفاقهم وتطلعاتهم .لذلك تحتاج المجتمعات إلى فهم هذه التحولات، وإلى إعادة تقييم السياسات والفرص المتاحة للشباب قبل أن تتفاقم مشاعر الإحباط وفقدان الأمل.

وأخيرًا، يجب أن نتخلى عن عقلية »أنا وبعدي الطوفان .«فالمجتمع لا يقوم على الفرد وحده، بل على التعاون والتكافل والشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين . الاتحاد قوة، والتفرق ضعف، وأي معالجة حقيقية لقضية الهجرة تبدأ من بناء مجتمع يمنح أفراده الأمل والكرامة والفرصة.

وأهدي في الختام هذه الأبيات إلى القارئ العزيز:

تركتُ بلدي، رحتُ هائمًا تائهًا في همّي،
تركتُ بلدي، أصبحتُ وحيدًا عاجزًا عن سدّ حاجتي،
تركتُ بلدي، سرتُ في الشوارع مثل نسيم هواء عابر في طريق أملي،
تركتُ بلدي حتى أجد من يعينني على نوائب الدهر والسقم،
تركتُ بلدي وتركتُ من كانوا يومًا عائلتي،
تركتُ بلدي باحثًا عن حلم زائف قاتل لجسدي،
تركتُ بلدي والكل يلومني على فعلي، والله أعلم بعملي،
تركتُ بلدي...